خطبة الحوراء زينب عليها السلام في مجلس يزيد دراسة دلالية

د. رفاه عبد الحسين مهدي الفتلاوي
جامعة الكوفة / كلية الفقه

المقدمـــة

يوجد في تاريخ البشرية عدد كبير من الرجال والنساء نبغوا نبوغاً غير طبيعي في مختلف العلوم والفنون فنالوا الصيت الكبير اللامحدود في العالم الإسلامي وكذلك الإكبار والإعجاب والتحليل لأنّهم امتازوا بمزايا فضلتهم على غيرهم , وكان أولياء الله في طليعة النابغين لتعدد جوانب النبوغ فيهم.

والبيت النبوي الطاهر ضمَّ رجالات ونساء كانوا العناوين البارزة في صحيفة الإيجاد والتكوين.

ونحن في بحثنا هذا نتحدث عن سيدة عاشت قبل ثلاثة عشر قرناً ونصف القرن قد امتازت حياتها عن حياة غيرها من سيدات التاريخ إنّها السيدة زينب الكبرى بنت الإمام علي بن أبي طالب (ع) فهي نادرة من نوادر الكون , وآية إبداع في خلق الله تعالى , وملتقى آيات العظمة ومفخرة التاريخ.

فالسيدة زينب حصيلة أبوين كانت حياة كل واحد منهما مشرقة بالمزايا والمكرمات وكل صفحة منها تفتح للإنسان آفاقاً واسعة يطير الفكر في أرجائها , وتسبح كواكب الفضائل في فضائها.

قد ورثت العقيلة زينب من جدها الرسول (ص) ومن أبيها الإمام أمير المؤمنين(ع) جميع ما امتازوا به من المثل الكريمة والتي من أبرزها الإيمان العميق بالله تعالى وشجاعتها وهي تقف صارمة بالحق مشيدة بفضائل أسرتها الكريمة وأمجادها العظيمة قائلة: (الحمد لله رب العالمين الذي ختم لأولنا بالسعادة والمغفرة ولآخرنا الشهادة والرحمة)(1), مواكبة كل الأحداث والمصائب التي تعرض لها الإسلام بدءً من عصر رسول الله (ص) وما تركته وفاته من بصمات أليمة ألقت بظلالها على التاريخ مروراً بحياة أبيها وأمها وجهادهما الى وقفتها في كربلاء وما جرى فيها من أحداث إذ استطاعت أن تؤسس منهاجاً للثائرات وتفتح نبراساً يقتدي في قول الحق عند حكام الجور والطغيان.

انطلاقاً من هذه المقدمة الموجزة ارتأى البحث أن يباشر في موضوع حيوي خاص بسيدة من سيدات أهل البيت المحمدي محاولاً اعطاء صورة واضحة عن خير قدوة للنساء المؤمنات , بل خير مقتدى لكل امرأة تبحث عن السعادة في الحياة , والفوز بجنة عرضها السماوات والأرض.

فاختار البحث خطبتها الشهيرة في مجلس يزيد (لعنة الله عليه) ودراستها دراسة دلالية لما تمتاز به هذه الخطبة من مميزات بلاغية باهرة تعد امتداداً لثورة كربلاء وتجسيداً
رائعاً لقيمها الكريمة وأهدافها السامية ولعمق معانيها وبعد مراميها ودقة برهانها ولطافة وجازتها فإنْ أخطأتُ فمني وإنْ أصبتُ بعض معانيها فمن الله عز وجل وحده لا شريك له.

ابتدأ البحث بمقدمة عن شخصية زينب الحوراء(ع) وشجاعتها وصلابتها أمام جبروت الطغاة المتمثل بالطاغية يزيد ثم بيان أبرز ما قيل في خطبتها الملقاة في مجلسه لعنة الله عليه وصولاً إلى الدراسة الدلالية للخطبة إذ تناول البحث هذه الخطبة على مطلبين الأول هو الدلالة المجازية وتضمن الموضوعات:الاستعارة والكناية, والتشبيه , والسجع ,والطباق والمطلب الثاني هو دلالة الأساليب الإنشائية الطلبية وهي الأمر والنهي والاستفهام والنداء والأساليب الإنشائية غير الطلبية متمثلة بأسلوب القسم معقبة ذلك خاتمة بأبرز النتائج.

التمهيـــد

الحوراء زينب ثاني أعظم سيدة من سيدات أهل البيت المحمدي , كانت حياتها تزدحم بالفضائل والمكرمات , وتموج بموجبات العظمة والجلالة , والقداسة والروحانية , وتتراكم فيها الطاقات والكفاءات والقابليات , ومقومات الرقي والتفوق(1) فحياتها المشرفة جديرة بالدراسة والتحقيق ؛ لأنّ مجرد القراءة في ملف حياتها يعدّ أفضل أنواع العبادة وسبل

التقرب إلى الله سبحانه تعالى ؛ لأنّها إطلاع على حياة سادات أولياء الله تعالى , أمّا التدبر في اللقطات التاريخية التي وصلت إلينا عن حياتها يعطي دروساً مفيدة للإنسان تنفعه في كثير من مجالات حياته.

فأي شخص يعزم الكتابة على الإمام الحسين عليه السلام وواقعة كربلاء نجده بلا شك يتبادر إلى ذهنه دور العقيلة زينب (ع) في جميع حوادث كربلاء مسلط الضوء على قوة شخصيتها وشجاعتها ؛ لكونها سيدة المواقف وصاحبة الكلمة وزعيمة الدور القيادي لنساء أهل البيت (ع) ليس هذا فحسب بل للنساء المؤمنات جمعاء.

فعاشوراء الحسين وزينب عليهما السلام إنّما هو كتاب العاشقين الوالهين في حب الله تعالى وجماله , وزينب بطلة كربلاء معلمة العشق الإلهي جيلاً بعد جيل , ترفع الى السماء جسد أخيها المضرّج بالدماء , محزوز الرأس , مهشم الأضلاع , وتقول بكل سكينة ووقار (اللهم تقبل هذا القربان من آل محمد صل الله عليه وسلم).

ومن يعش في رحاب زينب العشق يمتلئ قلبه شوقاً للقاء معبوده جل جلاله , فيكون لسانه ميزان الحكمة , ويده مائدة الكرام , ويحيا بعشق الله , ويرجع القلب الى مالكه الأصلي التكويني والتشريعي , كل هذا ببركة رسالة زينب الرسالية , رسالة الدم والدموع , رسالة المقاومة والفداء(2) ,وشجاعة السيدة زينب وبطولتها تجلّت في عدة مواقف لا يسعني الخوض فيها جميعها بل ساقتصر على موقفها البطولي والشجاع في مجلس يزيد لأنّ البحث هذا مخصص بالجانب البلاغي لخطبتها.

كان موقف السيدة زينب (ع) في مجلس يزيد بن معاوية من أروع مواقف الدفاع عن الحق , وتحدي جبروت الطغيان والظلم.

فيزيد بن معاوية (لعنة الله عليه) كان أمامها متربعاً على كرسي ملكه , وفي أوج قوته , وزهو انتصاره , تحفَّ به تيارات جيشه , ورجالات حكمه, وزعماء الشام, وكانت السيدة زينب تعرف فظاظة يزيد وغلظته وتهوره في القمع والإرهاب, وأنّ أي استفزاز له يمكن أن يدفعه إلى أسوأ الإجراءات , فليس له رادع من دين أو عقل.

كما أنّ أجواء المجلس كانت مهيأة ومعدّة ليكون الاجتماع مهرجاناً للاحتفال بانتصار الحاكم على ثورة أهل البيت عليهم السلام.

ومن ناحية أخرى قد كانت العقيلة زينب عليها السلام في ظروف بالغة القسوة والشدة جسدياً ونفسياً , فهي لا تزال تعيش تحت وطأة الفاجعة , وتأثيرها الهائل على أحاسيسها ومشاعرها , ولاجواء الشماتة والإذلال التي استقبلتها في الشام وقع كبير على نفسها ومجرد حضورها سبية أسيرة في مجلس عدو ظالم حاقد , قد ارتضع وتوارث عداء أسرتها منذ عهود وعقود وهي في خدرها وصونها وعزها إنّ ذلك وحده كفيل بتحطيم المعنويات وهزيمة الروح (3).

تلك المرأة المسبية الأسيرة التي سيقت إلى مجلس يزيد مكتفة بالحبال , تقف أمام الحاكم المتغطرس المتجبر صارخة به: (يا ابن الطلقاء) ومنذرة له: (ولتودنّ أنك شللت وبكمت , ولم تكن قلت ما قلت , وفعلت ما فعلت) وداعية عليه:(اللهم خذ لنا بحقنا , وأنتقم ممّن ظلمنا ,وأحلل غضبك بمن سفك دماءنا ,وقتل حماتنا),وتتحداه قائلة: (فو الله ما فريت إلاّ جلدك ولا حززت إلاّ لحمك) وتكرر له تحدّيها هاتفة:(فكد كيدك وأسع سعيك) وبصراحة أوضح تبدي احتقارها له, وأنّها أكبر وأسمى من أن تكلّمه أو تخاطبه لولا ما فرضته عليها الظروف فتقول:(ولئن جرّت عليَّ الدواهي مخاطبتك, إني لأستصغر قدرك , وأستعظم تقريعك , وأستكثر توبيخك)(4).

فمن خلال ما ذكرته أعلاه من كلام للعقيلة زينب (ع) نلاحظ مدى شجاعتها وعزتها وبطولتها فمن يداني ابنة داحي باب خيبر في الشجاعة والعزة والبطولة فهي ابنة أبيها تفرغ عن لسانه وروحه.

لذلك تحطّمت كبرياء يزيد أمامها وأنهار غروره وأصابته الحيرة والارتباك فلم يزد أن تمثّل بعد خطابها بقول الشاعر:

يا صيحة تحمد من صوائح ما أهون النوح على النوائح

وكأنّه يفسِّر خطاب السيدة زينب (ع) بأنّه نوع من الانفعال الطبيعي لما تعانيه من مصيبة ! فبعكس ما كان يقصده ويهدفه يزيد من دخول السبايا إلى مجلسه , بأن يستعرض قوته ,ويؤكّد انتصاره ويوجه إلى أهل البيت (ع) ضربات جديدة من الإذلال والهوان.

فقد أنعكس الأمر وتحول المجلس إلى ساحة محاكمة لجرائمه وميدان معركة تكبّد فيها هزيمة نكراء , وفوجئ يزيد بحصول ما لم يتوقع , وفقد السيطرة على نفسه ولم يعد يدري كيف يواجه الموقف,بينما استمرت العقيلة توجّه له ضربات التحدي وسهام التبكيت والاحتقار (5).

فبعد دخول السبايا إلى الشام المشؤوم وإيقاف الركب في باب الساعات طويلاً تنكيلاً بأهل البيت (ع) وخروج الناس الذين أعماهم الشيطان فرحين مسرورين يضربون الدفوف , وتجاوز يزيد اللعين على الرأس الشريف لسيد الشهداء عليه السلام وتمثله بأبيات شعرية لابن الزبعرى قامت اللبوة الحيدرية وحكيمة البيت الحيدري وعقيلة الوحي والنبوة والإمامة لتقض أركان الدولة اليزيدية فقالت خطبتها الشهيرة التي هي محور بحثنا هذا.

فهذا الخطاب من متممات النهضة الحسينية, ومن روائع الخطب الثورية في الإسلام فقد دمّرت فيه عقيلة بني هاشم وفخر النساء جبروت الأموي الظالم يزيد , وألحقت به وبمن مكّنه من رقاب المسلمين العار والخزي , وعرّفته عظمة الأسرة النبوية التي لا تنحني جباهها أمام الطغاة والظالمين (6).

وقبل الخوض في تحليل خطبة العقيلة (ع) بلاغياً لا بد من بيان أبرز ما قيل عنها وذكر آراء بعض العلماء ومنهم الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء الذي علّق قائلاً:(أتستطيع ريشة أعظم مصور وأبدع ممثل أن يمثل لك حال يزيد وشموخه بأنفه وزهوه بعطفه وسروره وجذله باتساق الأمور, وانتظام الملك ولذة القدرة والإمكان لأحد أن يدفع خصمه بالحجة والبيان والتقريع والتأنيب , ويبلغ ما بلغه سلام الله عليها بتلك الكلمات , وهي على الحال الذي عرفت , ثم لم تقتنع منه بذلك, حتى أرادت أن تمثل له وللحاضرين عنده ذلة الباطل,وعزة الحق وعدم الاكتراث واللامبالاة بالقوة والسلطة والهيبة والرهبة,أرادت أن تعرّفه خسة طبعه,وضعة مقداره ,وشناعة فعله,ولؤم فرعه وأصله)(7)

ويقول المرحوم الفكيكي:((تأمل معي في هذه الخطبة النارية كيف جمعت بين فنون البلاغة , وأساليب المقاصة وبراعة البيان , وبين معاني الحماسة , وقوة الاحتجاج, وحجة المعارضة , والدفاع في سبيل الحرية والحق والعقيدة ,بصراحة هي أنفذ من السيوف الى أعماق القلوب , وأحد أنياب الأفاعي , وركوب أطراف الرماح أهون على يزيد من سماع هذا الاحتجاج الصارخ الذي صرّحت به ربيبة المجد والشرف في وجوه طواغيت بني أمية وفراعنتهم في منازل عزهم ومجالس دولتهم الهرقلية الأرستقراطية الكريهة ,ثم إنّ هذه الخطبة التاريخية القاصعة لا تزال تنطق ببطولات الحوراء الخالدة وجرأتها النادرة وقد احتوت النفس القوية الحساسة الشاعرة بالمثالية الأخلاقية الرفيعة السامية وسيبقى هذا الأدب الحي صارخاً في وجوه الطغاة الطاغين على مدى الدهر وتعاقب الأجيال وفي كل ذكرى لواقعة الطف الدامية المفجعة) (8).

المطلب الأول

الدلالة المجازية في خطبة الحوراء زينب عليها السلام

وهي التي تقابل الدلالة الحقيقية أي تقابل الدلالة الأولى في الوضع , وهي التي سمّاها عبد القاهر الجرجاني معنى المعنى أو كما يقول: (أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر)(9). فالدلالة المجازية تمثل الدلالة الثانية إذ يخرج الكلام إلى معانٍ جديدة غير تلك التي يوجبها ظاهره وهي معانٍ يعقلها السامع من المعنى الظاهر ,فإذا كانت المعاني الناشئة بالألفاظ لا تحتاج إلاّ إلى العلم بالمواضعة (فإنّ العلم بالمعاني الثواني المدلول عليها بالمعاني الأول المدلول عليها بالألفاظ إنّما يتحصّل بطريق الاستنباط والاستدلال والتعقل)(10).

واندرج تحت هذه الدلالة الموضوعات الآتية:

الاستعــارة

الاستعارة من أكثر الأساليب تأثيراً في النفس وإرهافاً للحس ,ولذا فقد كثرت في كتاب الله تعالى وسنة نبيه (ص) من قبل أن تقعد له القواعد كما كثرت في الأدب العربي شعراً ونثراً وخطابة.

والأساس في الاستعارة النقل في الأصل المعروف أو المعنى الذي دلَّ عليه باللفظ الوضعي إلى شيء آخر لم يوضع له ذلك اللفظ (11) ويعد الجاحظ أول من عرّف الاستعارة بقوله:(الاستعارة تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه)(12).

وجاءت خطبة السيدة زينب محمّلة بكثير من مواضع الاستعارة ندرج من أهمها:-

- قولها عليها السلام:(تنطف أكفهم من دمائنا) تنطف: تقطر أو تبل وكلامها هذا استعارة بلاغية تعني به تلك الأيدي والأكف التي كانت تضرب بسيوفها ورماحها عن أجسام آل رسول الله: الإمام الحسين ورجال أهل بيته وأصحابه (ع) فتتقاطر أكفّهم وسيوفهم من دماء أولئك الطيبين.

- قولها عليها السلام:(وتتحلّب أفواههم من لحومنا)

تتحلّب: يقال:حلب فلان الشاه أو الناقة: أي استخرج ما في ضرعها من اللبن , وأستحلب اللبن استدّره (13).

والمراد من كلامها عليها السلام أنّه كما أنّ ولد الناقة تتحلّب وتمتص بفمها الحليب من محالب أمها , كذلك كان الأعداء يمتصون بأفواههم من لحوم ودماء آل رسول الله مصاً قوياً بدافع الحقد والبغضاء وهي استعارة بلاغية وكناية عن شدة حقدهم وعدائهم.

- قولها عليها السلام: (وتلك الجثث الطّواهر الزواكي تنتابها العواسل وتعفرها أمهات الفراعل).

تنتابها: تأتي إليها مرة بعد مرة , والعواسل جمع عاسل وهو الذئب(14).

والمقصود من العواسل هم الذين حضروا يوم عاشوراء لقتل الإمام الحسين (ع) والصفوة الطيبة من ذريته وأهل بيته وأصحابه , فقد عبّرت السيدة زينب (ع) عن أولئك الأعداء بالذئاب ؛ لأنّهم كانوا يحملون صفة الذئاب وهي الافتراس وهي استعارة , وقد استعمل الإمام الحسين هذا النوع من الاستعارة في خطبته التي ألقاها قبل خروجه من مكة نحو العراق إذ قال فيها:(خير لي مصرع أنا لاقيه وكأني بأوصالي تقطعها عُسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء..)(15) فيكون المقصود من كلمة تنتابها الهجوم المتوالي والغارات المتتالية التي كان الأعداء يشنونها على أصحاب الإمام الحسين (ع) وخيامه يوم عاشوراء.

وقولها (ع):(وتعفرها أمهات الفراعل) الفراعل جمع فرعل وهو ولد الضبع (16) استعارة بلاغية أيضا فهي تشير إلى أولئك الأفراد العشرة الذين ركبوا خيولهم وسحقوا جسد الإمام الحسين (ع) بعد قتله بحوافر الخيل في يوم عاشوراء.

الكنايـــة

هي وادٍ من أودية البلاغة , وهي لون من ألوان الخيال , ووسيلة من وسائل التعبير البياني التي لا يجيدها إلاّ كل بليغ, وهي تفتقر إلى شيء من الدّقة لما فيها من الغموض (17).

وعرّفها عبد القاهر الجرجاني بقوله:(أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموجود له في اللغة , ولكن يجئ إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيوميء به إليه ويجعله دليلاً عليه) (18)

وعرّفها السكاكي بقوله: (هي ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى المتروك)(19).

ومن أبرز تطبيقات هذا النوع البلاغي في خطبة العقيلة زينب (ع):

- قولها عليها السلام:(وشهر الحراب وهز السيوف في وجه رسول الله)

هز السيوف في قولها عليها السلام كناية عن الخروج للحرب وإصدار الأوامر للهجوم والغارة وبما أنّ أبا سفيان كان هو السبب في هذه الحروب فقد جاءت كلمة السيوف بصيغة الجمع.

- قولها عليها السلام:(قد التمع السرور بوجهه)

هنا كناية عن الفرح الشديد ليزيد لعنة الله عليه والمعنى حيث يكون الفرح شديداً يتدفق الدم إلى وجهه فيحمر , وبذلك تظهر آثار الفرح على ملامحه , فيقال التمع السرور بوجهه وهكذا كانت فرحة يزيد حيث ضرب تلك الثنايا الشريفة

التشبيه

لجأت السيدة زينب إلى هذا الفن البلاغي لتوضيح بعض المعاني وجعلها قريبة من ذهن السامع وهو من أكثر الأساليب البيانية في الشعر العربي القديم (ولو قال قائل أنّه أكثر كلامهم لم يبعد)(20), وعرفه ابن رشيق بقوله:(وصف الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة لا من جميع جهاته)(21).

فالتشبيه أداء يراد به التوضيح وإثبات الصفة أو تقريب إثباتها من المشبه , وإن قصد البيان والإيضاح فينبغي أن يكون المشبه أبين وأوضح (22).

وتجسَّد التشبيه في خطبة السيدة زينب في:

– قولها(عليها السلام): (باراقتك دم سيد شباب أهل الجنة , وابن يعسوب الدين ,وشمس آل عبد المطلب).

اليعسوب: النحلة التي يُعبّر عنها بالملكة في مملكة النحل (23) ,وقد لقّب رسول الله (ص) الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) بلقب يعسوب الدين وشبّه شيعته بالنحل الذي يعيش في ظلِّ تلك المملكة ويتّبع ذلك اليعسوب واشتهر بين المسلمين في ذلك اليوم هذا اللقب للإمام علي (ع).

ثم عبّرت السيدة زينب عن الإمام الحسين(ع) بشمس آل عبد المطلب وهو تعبير بلاغي راقي وتشبيه جميل , فالإمام الحسين (ع) كان الوجه المشرق الوضّاء والواجهة المتلألأة لآل عبد المطلب بن هاشم , وسبب الفخر والاعتزاز لهم, وهم كانوا المجموعة أو العشيرة الطيبة لقبيلة قريش , وقريش كانت أشرف قبائل العرب.

السجـــع

عرّف ابن الأثير السجع بأنّه:(توافق الفواصل في الكلام المنثور على طرف واحد(24)

وينطوي السجع على زخم كبير من الإيقاع ؛ لأنّ فيه ترديداً صوتياً يفجأ ذهن السامع فيلتذ له ويستطيبه خاصة إذا وقع عفواً رهواً.

وقد التفت ابن جني إلى ذلك من قبل وهو يتحدّث عن الأمثال المسجوعة التي تكون لذة استماعها مدعاة لحفظها وسيرورتها (25), بعبارة أخرى أنّ السجع يحقّق لوناً من التواصل بين المبدع المتلقي فيتمكن من إيصال ما يبتغي من مضامين وإحداث التأثير فيه والتفاعل معه (بمعنى أنّ المبدع استطاع أن يؤدي دور المرسل الفاعل , ويكون المتلقي المستقبل المتأثر والمنفعل بالرسالة)(26).

واستعملت السيدة زينب(ع) الأسلوب المسجوع وإن كان الطابع العام لها في الخطبة هو القائم على سجعتين إلاّ أنّنا نجدها أحياناً تستعمل ثلاث سجعات وسنوضح كلا النوعين بالأمثلة:

– قولها عليها السلام:(ليس من رجالهنّ وليٌّ ولا من حماتهنّ حميٌّ) , وقولها: (وكيف ترتجى مراقبة من لفظ فوه أكباد الأزكياء , وبنت لحمة من دماء الشهداء) ,وقولها:(فو الله ما فريت إلاّ جلدك ولا حززت إلاّ لحمك) , وقولها: (لكن العيون عبرى والصدور حرى), وقولها:(ألا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان الطلقاء).

وكي يكون السجع عالي النغمة بارزاً لا بد من إقامته على أساس من التوازن بين الفقرات القصيرة محافظة على تكثيف الصوت المكرر وعدم تشتيته , لذلك فهذه العبارات القصيرة في خطبتها عليها السلام نجد فيها التنغيم الإيقاعي شديداً عالي النغمة بسبب إقامة السجع على أسلوب الفقرات القصيرة المتوازنة ؛ لأنّ الأصل في السجع إنّما هو الاعتدال في مقاطع الكلام وهذا ما وجدناه في قولها:(وليّ وحميّ) و(الأزكياء ,الشهداء) و(جلدك , ولحمك) و(عبرى , وحرى) و(النجباء , والطلقاء).

ومثال الثلاث سجعات قولها عليها السلام :(يجمع الله شملَهم ويلُمُّ شعثَهُمْ ويأخذ بحّقهِم) وقولها: (فكِدْ كَيدك , واسْعَ سَعْيَك , وناصبْ جَهْدَك, فو اللهِ لا تمحون ذكرنا , ولا تميتُ وحينا ولا تُدرك أمرنا) وقولها:(وهل رأيُك إلاّ فندٌ , وأيامك إلاّ عددُ , وجمعُك إلا بددُ).

الطبـــاق

أجمع البلاغيون على حد الطباق بأنّه الجمع بين الاضداد في الكلام الشعري والنثري على السواء وقد سموه تسميات أخرى هي المطابقة والتضاد إذ نرى ابن قيم الجوزية تكلّم عن الطباق في قسم مستقل في علم المعاني وعرّفه قائلاً:(هو أن يجمع في الكلام بين متضادين مع مراعاة التقابل بحيث لا يضم الاسم إلى الفعل ولا الفعل إلى الاسم) (27) وقد تزينت خطبة السيدة زينب (ع) بهذا اللون البديع وأظهرت فيه قدرتها الإبداعية في إيراد المعاني ومن ذلك:

– قولها عليها السلام: (أمن عدل يابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإمائك ,وسوقك بنات رسول الله سبايا) وقولها: (ويتصفح وجوههن القريب والبعيد , والدّنيّ والشريف) وقولها:(ولتوّدنّ أنّك شُللت وبُكمتَ ولم تكن قلتَ ما قلتَ وفعلتَ ما فعلتَ) وقولها:(إنّي لأستصغر قدرك , وأستعضم تقريعك) وقولها:(الحمد لله الذي ختم لأولنا بالسعادة والمغفرة ولآخرنا بالشهادة والرحمة).

فطابقت عليها السلام بين (تخديرك , وسوقك) و(القريب والبعيد) و(الدنيّ والشريف) و(قلتَ وما قلتَ) و(فعلتَ وما فعلتَ) و(استصغر واستعظم) و(أولنا وآخرنا).

المطلب الثاني

دلالة الأساليب الإنشائية

تنوّعت أساليب الإنشاء في خطبة الحوراء زينب (ع) واستعملت فيها ما كان طلبياً كالأمر والنهي والاستفهام والنداء, وما كان غير طلبي كالقسم.

وسيفصل البحث أولاً في الإنشاء الطلبي كالآتي:

الأمـــر

وهو طلب حصول الفعل من المخاطب على وجه الاستعلاء والإلزام ويكون بصيغ مختلفة (28) ,ومما ورد من صيغها صيغة واحدة فقط في خطبة السيدة زينب (ع) هي صيغة فعل الأمر وذلك في قولها:(كد كيدك وأسع سعيك وناصب جهدك) وهذا أمر تهديد إذ ذكر ابن قتيبة الأمر للتهديد بقوله: (ومنه أن يأتي الكلام على لفظ الأمر وهو تهديد)(29) فصيغة الأمر تخرج إلى معنى التهديد عندما يكون الأمر في مقام عدم رضا الآمر بما أمر.

ويلاحظ على كلام السيدة (ع) طابع التهديد الشديد فهي واثقة من نفسها أعلى درجات الثقة فقد أرادت الحوراء (ع) أن تقول ليزيد: أصنع ما بدا لك من تخطيط وتفكير , وقتل وإبادة , وسبي وأسر وأبذل ما في وسعك من جهود , فسوف لا تصل إلى الهدف الذي حلمت به وهو استئصال شجرة النبوة من جذورها بكافة أغصانها وفروعها وأوراقها وعدم إبقاء صغير أو كبير من آل رسول الله (ص) رجلاً كان أو امرأة.

وقد خرج الأمر من معناه الأصلي إلى معنى بلاغي يستفاد من سياق الكلام وبقرينة تدل عليه فقد خرج إلى معنى الدعاء وذلك في قولها (ع):(اللهم خذ بحقنا وانتقم ممن ظلمنا , وأحلل غضبك بمن سفك دمائنا وقتل حماتنا) فهذا دعاء من السيدة زينب (ع) على يزيد ومن شاركه في ظلم آل رسول الله الطيبين الطاهرين دعت عليهم من ذلك القلب الملتهب بالمصائب المتتالية وأرادت أن تبيّن ليزيد حقيقة واقعية هي إنّ جميع ما قمت به ضد آل رسول الله من قتل وسبي وحمل الرؤوس من بلد إلى بلد واهانة الرأس الشريف لا تعود عليك بالفائدة والنفع بل تعود عليك بالخسران والعقوبة حتى لو جعلتك تفرح لمدة قصيرة لكن هذا الفرح سوف لا يستمر بل يتعقبه سلسلة متواصلة من أنواع الخسارة والعذاب الجسدي والنفسي.

النهـي

وهو طلب الكف عن فعل شيء على وجه الاستعلاء والإلزام ,وليس له إلاّ صيغة واحدة وهي المضارع المقرون بلا الناهية,وخرج النهي إلى معنى التحقير والإهانة استنتج من سياق الكلام والقرائن الدالة عليه وذلك في قولها عليها السلام: (لا تطش جهلاً) فهذا نهي من السيدة زينب (ع) ممزوج بالإهانة والتحقير فتقول له يا يزيد لا تطش بسبب جهلك بالحقائق , وخلطك بين المفاهيم والقيم والاغترار بالظواهر، وقولها أيضاً عليها السلام: (لا تدرك أمرنا , ولا تبلغ غايتنا , ولا تمحو ذكرنا)، ومعنى كلامها هنا عليها السلام مهما بذلت من الجهود , وحاولت من المحاولات فسوف تفشل في ذلك ,فقد حاول ذلك من كان قبلك وهو معاوية فلم يستطع ذلك رغم أنّه كان أقوى منك.

الاستفهـام

وهو(طلب العلم بشئ لم يكن معلوماً من قبل)(30) والاستفهام من أوفر أساليب الكلام معاني وأوسعها تصرفاً وأكثرها في مواقف الانفعال وروداً ولذا نرى أساليبه تتالى في مواطن التأثر , وحيث يرد التأثير وهيجان الشعور للاستمالة والإقناع(31)، ومن الاستفهام التعجبي الذي خرجت إليه الخطبة قول الحوراء زينب (ع): (وأنى ترتجي مراقبة ابن من لفظ فوه أكباد الشهداء , ونبت لحمه بدماء السعداء)، فجاءت (أنى) بمعنى كيف والمعنى كيف ومتى يتوقع الخوف من الله تعالى من ابن من رمت من فمها أكباد الشهداء الأبرياء وفي هذا إشارة إلى ما حدث في واقعة احد حيث قتل سيدنا حمزة بن عبد المطلب (ع).

ومن الاستفهام التوبيخي ما قالته عليها السلام:(وهل رأيك إلاّ فند وأيامك إلاّ عدد وجمعك إلاّ بدد) أي أنّ رأيك في تخطيطك ومحاولتك للتخلص من مضاعفات جريمتك خطأ وضعيف. فأيامك الباقية يا يزيد قليلة فسوف لا تبقى في هذه الحياة إلاّ أياماً معدودة فأنت قريب إلى الموت والهلاك فسوف تلاقي جزاء أعمالك فالعذاب منك قريب.

النـداء

وهو (تصويت بالمنادى لإقباله عليك) (32) أي أنّ دلالته هي طلب الإقبال حساً أو معنىً بحرف مولد من الفعل (أدعو) سواء أكان الحرف ملفوظاً أم مضمراً، ويعد حرف النداء (يا) الحرف الأكثر استعمالاً في خطبة السيدة زينب (ع) وذلك عائد إلى ما تميز به من مرونة في الاستعمال وإمكانية حلوله في مواقع النداء والسيدة زينب توظفه في ندائها للمريد أو المعرض عن طريق الحق جذباً لانتباهه كي يقبل عليها ويصغي إليها وأقصد بذلك يزيد طبعاً إذ استعملت الحوراء (ع) حرف النداء (يا) في خطبتها توبيخاً ليزيد أو مخاطبته خطاباً شديد اللهجة وهذا ما نراه مجسداً في قولها عليها السلام (أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك حرائرك , وإمائك وسوقك بنات رسول الله سبايا) فالطلقاء جمع طليق وهو الأسير الذي أطلق عنه إساره , وخلي سبيله، فالسيدة زينب لم تقصد من كلامها هذا السؤال والاستفهام بل لتوبيخ يزيد على سلوكه القبيح ونفسيته المنحطة , وتنكر عليه تعامله السيئ , وتعلن له أنّه بعيد كل البعد عن أوليات الفطرة البشرية وهي جزاء الإحسان بالإحسان، وكذلك قولها عليها السلام: (أظننت يا يزيد حين أخذت علينا أقطار الأرض وضيقت علينا آفاق السماء فأصبحنا لك في أسار, نساق لك سوقاً في قطار , وأنت علينا ذو اقتدار).

خاطبت الحوراء (ع) الطاغية يزيد باسمه الصريح ولم تخاطبه بكلمة (أيها الخليفة) أو (يا أمير المؤمنين) وأمثالها من كلمات الاحترام وذلك توبيخاً واحتقاراً له فقد خاطبته باسمه وكأنّها تصرّح بعدم اعترافها بخلافته ذلك الرجس إذ وصفت عليها السلام حالها وأحوال من معها من العائلة المكرمة أنّهم كانوا في أشد الضيق كالإنسان الذي أخذوا عليه أي منعوه وحاصروه من جميع الجوانب والجهات بحيث لا يستطيع الخروج والتخلص من الأزمة.

أما الأساليب غير الطلبية الموجودة في خطبتها عليها السلام فتمثلت في صيغة:-

القسـم

هو وسيلة من وسائل توكيد الخبر لدى السامع (وهو أن يراد الحلف على شيء فيحلف بما يكون له مدحاً وما يكسبه فخراً , أو ما يكون هجاء غيره وكيداً له أو جارياً مجرى التغزل والترقق) (33)

وإنّ للقسم أثراً فعالاً في السياق لأنّه لا يتم إلاّ بالأمور العظيمة أو بالأشخاص ذوي المكانة لدى المتلقي أولاً أو المتكلم في بعض الأحيان وهذه الأمور تكون لها قيمة لدى المخاطب وهي ذات تأثير فيه يجعله يفقه الكلام ويثق به. لذا فإنّ القسم يرد في السياق لتأكيد الكلام وتقوية الحكم فغالباً ما يوجه لشخص متردد أو شاك فيأتي القسم مصدقاً ومؤكداً.

ومن القسم المؤكد قالت السيدة زينب في خطبتها:(فو الله الذي شرفنا بالوحي والكتاب والنبوة والانتخاب لا تدرك أمرنا ولا تبلغ غايتنا ولا تمحو ذكرنا) القسم في هذا المقطع للتأكيد الأكثر وهو في الواقع انعكاس آخر لعلو مستوى درجة الثقة بالنفس والاتكال على الله تعالى واليقين بما يقوله الإنسان ويحلف من اجله وعلم السيدة بحوادث المستقبل وما ستؤول إليه الأمور فإنّ حوادث اليوم وأحداث المستقبل تعد أمام عين السيدة زينب في حد سواء لأنّ الله تعالى ميّزها عن بقية سيدات البشر بأن يوصّل إليها العلوم مباشرة عن طريق الإلهام ودون تعلّم من البشر ولذلك فأنّ حوادث المستقبل معلومة وواضحة لها كاملاً كالحوادث المعاصرة.

إنّنا نتلمس من كلمات القسم هذه المعنويات العالية التي كانت تمتاز بها السيدة وزينب حين إلقائها لخطبتها فهي تفتخر وتعتز بمزاياها الفريدة فتقول:(فو الله الذي شرّفنا بالوحي والكتاب) فالقرآن الكريم نزل على جدها وهو رسول الله سيدنا محمد وفي دارها وكذلك اختار الله هذه الأسرة وانتخبها لتكون فيهم النبوة.

الخاتمـــة

ومن ابرز نتائج البحث الآتي:

1- كان السجع من أهم أدوات السيدة زينب (عليها السلام) في التنغيم الإيقاعي تطلبه وتتوخاه مقتفية أثر الأسلوب القرآني وهو عندها قائم على التوازن والازدواج ويعمل على ربط الأداء بالمضمون.

2- الأساليب الإنشائية المستعملة في البحث لها طاقة تأثيرية عالية فهي قريبة من طبيعة مقامات القول فتعبر عن المواقف التي تتسم بالشدة والقوة ناقلة انفعال النفس وتمتلك إمكانية استقطاب الأذهان وجلب الانتباه عبر طبيعة صيغها التي توفق في شد ذهن المتلقي فيكون المتلقي أكثر حضوراً إذا كان الخطاب متجهاً إليه فهو المخاطب ومشاهد الخطاب وتمثلت هذه الأساليب في الأمر والنهي والنداء والاستفهام والقسم.

3- إنّ ما اقترفه الطاغية يزيد من سفكه لدماء العترة الطاهرة ,فأنّه مدفوع بذلك بحكم نشأته ومواريثه فجدّته هند هي التي لاكت كبد سيد الشهداء حمزة ,وجده أبو سفيان العدو الأول للإسلام , وأبوه معاوية الذي أراق دماء المسلمين وانتهك جميع ما حرّمه الله , فاقتراف الجرائم من عناصره وطباعه التي فطر عليها إلا أنّ الطاغية بسفكه لدماء العترة الطاهرة الم يسفك إلاّ دمه ولم يفرِ إلاّ جلده , فإنّ تلك النفوس الزاكية حيّة خالدة وقد تلفّعت بالكرامة , وبلغت قمة الشرف , وأنّه هو الذي باء بالخزي والخسران.

4- أظهرت الحوراء زينب (عليها السلام) سمو مكانتها وخطر شأنها ,فقد كلّمت الطاغية بكلام الأمير والحاكم فاستهانت به واستصغرت قدره ,وتعالت عن حواره ,وترفّعت عن مخاطبته ,ولم تحفل بسلطانه ,لقد كانت العقيلة على ضعفها وما ألمّ بها من المصائب أعظم قوة واشد بأساً منه تتوعّده بأنّ مصيره هو مصير أسلافه عتبة وشيبة والوليد وأنّه لاحق بهم في نار جهنم.

5- كشفت في خطبتها(عليها السلام) عن حكم يزيد الباطل، وأعلنت أمام الحاضرين بأنّ المُلك والسُّلطة إنّما لأهل البيت(عليهم السلام) حينما تقول: (حين صفا لك مُلكُنا وسُلطاننا)، وهي بذلك تكشف عن قضيّة سياسيّة بشجاعة فائقة، وتتدرّج بحديثها لتُبيّن أنّ الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) جدّها هو الذي أرسى دعائم الدِّين بأحكام أمر الإمامة والخلافة في صفوة عترته وأهل بيته، فعليٌّ إمام ووصي ووارث، ومن بعده ابناه وسبطا رسول الله الإمام الحسن فالإمام الحسين(عليهما السلام)، وخطاب السيدة زينب(عليها السلام) يكشف عن شجاعتها، إذ خاطبت من لا يجرؤ أحد على تكليمه وفضحته أمام الخلائق، وكشفت عن أحقّيّة أهل البيت (عليهم السلام) في تولّي السّلطة، وإنّه وأباه مغتصبان لها.

6-على الرغم من اقتصار البحث على الأساليب الإنشائية إلاّ أنّه لم يخلُ من أساليب إلقاء الخبر، إذ عمدت(عليها السلام) إلى أساليب متُعدّدة لإلقاء الخبر للمخاطبين من أجل الإفصاح والإظهار لهم، وما ميّز الإلقاء في خطبتها هو معرفتها بما يتناسب ومقتضى الحال، لذا تميّز القاؤها بأنّه كان على قدر الحاجة ولم يكن عبثاً، ولذلك اختلفت السُّبُل باختلاف أحوال المُخاطبين وفي خطبتها هذه تُلقي الخبر في قولها: (ولتردنّ على الله وشيكاً موردهم، ولتودّنّ أنّك عميت وبكمت)، وقد أفادت من الحكم الذي تضمنه الكلام، وهي بذلك عمدت إلى أن تُبيّن وتُوضّح لسامعيها المصير الذي سينتهون إليه، فجاء الخبر إنكاري لتكرار المؤكد (نون التوكيد) على الواحد، وهنا أنزلت المُتردّد (المُخاطب) منزلة الخالي الذِّهن، ويبدو واضحاً أنّها أخرجت الكلام خلاف مقتضى الظاهر، لذلك كان المُتلقي (يزيد) كالسائل الخالي الذِّهن أو المُتردّد المنكِر لعدم وجود القرينة.

7- أفادت اغلب الأساليب الإنشائية التهديد والتوبيخ والزجر والوعيد والتحذير لما ساد مجلس يزيد من الجبروت والطغيان أمام الحوراء زينب عليها السلام التي لم تتوانَ عن التصدي له بكل شجاعة وعزة نفس ولم تهابه وتخاف منه أبداً مما أربك يزيد وقتئذ من كلامها وأجبرته عن السكوت عليها السلام في أثناء إلقائها لخطبتها الشهيرة.

8- كشف البحث في ألفاظ خطبتها(عليها السلام) عن عمقها الدلالي، وهي تجنح إلى طابع السهولة والوضوح والبعد عن الحوشي والغريب نجدها قد غيّرت معياريّة نمط القوّة في الألفاظ بحلّتها الجديدة، من حيث وضوحها ودقّتها وصياغة نظمها، وذلك للسمة التي غلبت على ألفاظها، حتى تفاضلت فيها مراتب البلاغة وهي توائمُها على وفق أنظمة وأنساق تتوافق وفكرتها(عليها السلام).

الهوامـش

(1) ينظر:زينب الكبرى عليها السلام من المهد إلى اللحد:السيد محمد ناظم القزويني/5 , 6.

(2)ينظر:النوران الزهراء والحوراء عليهما السلام:السيد عادل العلوي/203, 204

(3) ينظر:المرأة العظيمة قراءة في حياة السيدة زينب بنت علي (ع) / 199.

(4) ينظر:المصدر نفسه /208.

(5) ينظر: نفسه / 209.

(6) ينظر:موسوعة سيرة أهل البيت: باقر شريف القرشي / 340.

(7) السياسة الحسينية: محمد حسين آل كاشف الغطاء / 30.

(8) موسوعة سيرة أهل البيت / 341

(9) دلائل الإعجاز /263

(10) التصوير البياني: محمد أبو موسى /7

(11) ينظر: علم البيان: بدوي طبانة / 68.

(12) البيان والتبيين: الجاحظ 153/1.

(13) ينظر: الأفعال: ابن القوطية/58.

(14) ينظر: الأفعال: ابن القوطية /222,لسان العرب (عسل)446/11.

(15)بحار الأنوار: الكليني 367/44.

(16) ينظر: المحيط في اللّغة: الصاحب بن عباد 2/ 321.

(17) ينظر: القرآن والصورة البيانية: عبد القاهر حسين /217.

(18) دلائل الإعجاز: الجرجاني /52.

(19)مفتاح العلوم:السكاكي /213.

(20) الكامل في اللغة: المبرد 97/2.

(21) العمدة: ابن رشيق 294/2.

(22) ينظر:علم البيان:عبد العزيز عتيق /120 ,الأداء البياني في شعر الشيخ علي الشرقي :صباح عنوز /42

(23) ينظر: العين 3/ 254.

(24) المثل السائر: ابن الأثير 1/ 275

(25) ينظر:الخصائص ابن جني 1/ 216.

(26) الخطاب النقدي عند المعتزلة: كريم الوائلي / 233.

(27) الفوائد المشوق:ابن قيم الجوزية /204.

(28) ينظر: البلاغة فنونها وأفنانها: فضل حسن عبادي /61.

(29) تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة/216.

(30) جواهر البلاغة:أحمد الهاشمي /58.

(31) ينظر:أساليب الاستفهام في القرآن الكريم: عبد العليم السيد فودة / 292

(32) الطراز: العلوي 3/ 293.

(33) تحرير التحبير: ابن الإصبع المصري / 327.

المصادر والمراجع

* الأداء البياني في شعر الشيخ علي الشرقي: د0صباح عباس عنوز, دار الضياء للطباعة, النجف/2001م.
* أساليب الاستفهام في القران الكريم:عبد العليم السيد فودة,المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ,مؤسسة دار الشعب.
* الأفعال:ابن القوطية,قدم له وضبطه ابراهيم شمس الدين,ط1,دار الكتب العلمية,بيروت/2003م
* البلاغة فنونها وأفنانها:د0 فضل حسن عباس, دار إحياء التراث , بيروت /2006 م.
* البيان والتبيين: الجاحظ ,شرح وتحقيق عبد السلام هارون,ط5,مكتبة الخانجي ,القاهرة /1985م.
* تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة , مكتبة الخانجي ,القاهرة /2009 م.
* تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القران:ابن أبي الأصبع المصري, تحق د0حفني محمد شرف, مطابع شركة الإعلانات الشرقية ,القاهرة /1983م.
* التصوير البياني:محمد حسين موسى ,ط2,دار التضامن ,القاهرة /1980م.
* التعريفات: الجرجاني , دار إحياء التراث,ط1,بيروت /2003م.
* جواهر البلاغة:احمد الهاشمي,ط12, منشورات دار إحياء التراث العربي,بيروت
* دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني ,دار الكتب العلمية ,بيروت/2002م.
* علم البيان: بدوي طبانة ,ط4,المطبعة الفنية الحديثة ,مصر.
* علم البيان: عبد العزيز عتيق ,دار النهضة العربية للطباعة,بيروت/1974م.
* العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ابن رشيق القيرواني,ط2, تحق محمد محيي الدين عبد الحميد ,مطبعة السعادة ,مصر/1955م.
* الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان: ابن القيم الجوزية ,ط2,دار الكتب العلمية ,بيروت/1088م.
* القرآن والصورة البيانية: عبد القاهر حسين,ط2, عالم الكتب ,بيروت/1985م.
* الكامل في اللغة:المبرد,مكتبة المعارف ,بيروت.
* لسان العرب: ابن منظور ,نشر أدب الحوزة ,قم/1405 هـ.
* مفتاح العلوم: السكاكي,عالم الكتب , مصر /1999م.